س . أ . ع[(١)]

هؤلاء ثلاثةٌ من الأدباء ، تجمعهم صِفة العزوبة ، ويحبُّون المرأةَ حبّاً خائفاً ، يقدِّم رجلاً ، ويؤخِّر أخرى ؛ فلا يُقبل إلا أدبر ، ولا يَعزِم إلا انحلَّ عزمُه ؛ بلغوا الرُّجولةَ ، وكأنْ ليست فيهم ، وتمرُّ بهم الحياةُ مرورَها بالتَّماثيل المنصوبة ، لا هذه قد وُلد لها ، ولا أولئك ؛ وما برحوا يجاهدون ؛ ليحتملوا معاني وجودهم ، لا ليطلبوا سعادة وجودهم ، ويُمَخْرِقون[(٢)] في شعْوذة الحياة بالنَّهار على اللَّيل ، وباللَّيل على النَّهار ؛ يحاولون أن يجدوا كالنَّاس أياماً ، ولياليَ ؛ إذ لا يعرفون لأنفسهم من العزوبة إلا نهاراً واحداً ، نصفُه أسودُ مقْفِرٌ مظلِمٌ . . . !

فأما « س » فرجلٌ « كشيخ المسجد » يكاد يرى حصير المسجد حيث وطِئتْ قدماه من الأرض . . . ذو دينٍ ، وتقوى ، ما يزال بهما ينقبض ، وينكمش ، ويتزايل حتَّى يرجع طفلاً في الثلاثين من عمره . . . وهو حائرٌ بائرٌ[(٣)] لا يتَّجه لشيءٍ من أمر المرأة ، وقد فقدَ منها ما يَحلُّ وما يَحرم ، ولا جُرأَة لنفسه عليه ، فلا جرأة له على الموبِقات ، ولا يزيِّن له الشَّيطان وَرْطةً منها إلا ٱمَّلس منه[(٤)] ؛ فإنَّ له ثلاثة أبواب مفتوحةٍ للهرب ؛ إذ يخشى الله ، ويتوقَّى على نفسه ، ويستحْيي من ضميره .

وأمَّا « أ » فرجلٌ مِعْزابة[(٥)] ، ولكنَّه كالإسفِنْجة ، امتلأت حتَّى ليس فيها خَلاءٌ لقطرةٍ ، ثم عُصِرت حتَّى ليس فيها بَلالٌ من قطرةٍ ، وقد بلغ ما في نفسه ، وقضى نَهمتَه ؛ حتَّى اشتفى ممَّا أراد ، ثم قلَبَ الثَّوب . . . فإذا له داخِلةٌ[(٦)] ناعمةٌ من

---

(١) هم الأصدقاء : سعيد . . . ، وأمين حافظ شرف ، وعبد الله عمار ، وانظر : « عمله في الرسالة » من كتابنا : « حياة الرافعي » . (س) .

(٢) « يمخرقون » : يُموِّهون .

(٣) « بائر » : بار العمل : بطل ، ولم يحقق المقصود منه ، فهو بائر .

(٤) « امّلس منه » : امَّلس من الأمر : أَفْلَتَ منه .

(٥) « رجل معزابة » : أي : : لا أهلَ له .

(٦) « داخلة » : الداخلة من الإنسان : نِيَّته ، وطويَّته ، ومذهبه .

الخزِّ[1] ، والدِّيباج[2] ، وإذا هو « الرَّجل الصَّالح » العفيف الدَّخلة ، ما تنطلق له نفس إلى مأثمٍ ، ولا يعرف الشَّيطان كيف يتسبَّب لصُلحه ، ومُراجعته الودَّ . . .

وأما « ع » فهو كالأعرج : إذا مشى إلى الخير ، أو الشَّرِّ مشى بطيئاً برِجْلٍ واحدة ، ولكنَّه يمشي . . . وهو « مَلِكُ الشَّوارع » لا يزال فيها مقبلاً مُدبِراً طرفاً من النَّهار ، وزُلَفاً من اللَّيل ؛ فإذا لم يكن في الشَّارع نساء ظنَّ الشَّارع قد هرَب من المدينة ، وخرج من طاعته . . . ولهذه الشَّوارع أسماءُ عنده غير أسمائها الَّتي يتعارفها النَّاس ، ويستدلُّون بها ؛ فقد يكون اسم الشارع مثلاً : « شارع طه الحكيم[3] » ويسمِّيه هو : « شارع ماري » ؛ ويكون اسم الآخر : « شارع كتشنر » فيسمِّيه « شارع الطَّويلة » . . . ودَرْبٌ اسمه : « درب الملاَّح » واسمه عنده : « درب المَلِيحة » . . . وهلمَّ جرّاً ، ومَسخاً .

وإذا أراد صاحبُنا هذا أن يسخر من الشَّيطان ؛ دخل المسجد فصلَّى ، وإذا أراد الشيطان أن يسخر منه دَحْرجه في الشَّوارع . . . !

* * *

وافيت هؤلاء الثلاثة مجتمعين يتدارسون مقالة : « تربية لؤلؤية » ، يناقِشونها بثلاثة عقولٍ ، ويفتِّشونها بستِّ عيون ، فأجمعوا على : أنَّ المرأة السَّافرة التي نبذتْ « حجاب طبيعتها » على ما بيَّنتُه في تلك المقالة ـ إنْ هي إلا امرأة مجهولةٌ عند طالبي الزَّواج ، بقدر ما بالغَت أن تكون معروفةً ، وأنَّها ابتعدت من حقيقتها الصَّحيحة ، قدر ما اقتربت من خيالها الفاسد ، وأتقنت الغلط ليصدِّقها فيه الرَّجل ، فلم يكذبها فيه إلا الرَّجل ، وجعلت أحسنَ معانيها ما ظهرت به فارغةً من أحسن معانيها . . . !

وأردت أن أعرف كيف تنتصف الطَّبيعة من الرَّجل العزَب للمرأة ؛ التي أهملها ، أو تركها مهملةً . . . وأين تبلغ ضرباتها في عيشه ، وكيف يكون أثرها في

---

(١) « الخز » : ما يُنْسَج من الصوف والحرير ، أو من الحرير وحده .
(٢) « الديباج » : نسيج من الحرير مُلوَّن ألواناً .
(٣) ما يأتي هنا من أسماء الشوارع فهو من شوارع « طنطا » . وفي شارع « طه الحكيم » كانت دار الرافعي . (س) .

نفسه ، وكيف تكون المرأة في خائنة الأعين ، فتسرَّحْت مع أصحابنا في الكلام فنّاً بعد فنٍّ ، وأزلت حِذارَهم[١] الذي يحذرون ، حتى أفضوْا إليَّ بفلسفة عقولهم وصدورهم في هذه المعاني .

قال « س » : حسبي والله ! من الآلام وآلامٍ معها شعوري بحرماني المرأة ، فهو بلاءٌ منعني القرار ، وسلبني السَّكينة ، وكأنَّه شعورٌ بمثل الوَحْدة ؛ التي يعاقب السَّجين بها مصروفاً عن الحياة ، مصروفةً عنه الحياة ، تجعله جُدرانُ سجنه يتمنَّى لو كان حجراً فيها ، فينجوَ من عذاب إنسانيَّته الذَّليلة المجرمة ، المخلَّى بينها وبينه ، توسعُه ممَّا يكره شعوراً بالوحدة والعزلة حتَّى مع النَّاس وبين الأهل ، فما فيَّ إلا عواطف خُرْسٌ[٢] لا تستجيب لأحدٍ ، ولا يجاوِبها أحدٌ في « ذلك المعنى » .

وتمامُ الذِّلَّة أن يجد العزَب نفسه أبداً مكرهاً على الحديث عن آلامه لكلِّ من يخالطه ، أو يجلس إليه ، كأنَّه يحمل مصيبةً لا يُنفس منها إلا كلامُه عنها ، وهذا هو السِّرُّ في أنَّك لا تجد عزَباً إلا عرفته ثرثاراً ، لا تزال في لسانه مَقالة عن معنىً ، أو رجلٍ ، أو امرأةٍ ، وأصبته كالذُّباب لا يطيرُ عن موضعٍ إلا ليقع على موضعٍ .

ومع جَهْدِ الحرمان جَهْدٌ شرٌّ منه في المقاومة وكفِّ النَّفس ، فذلك تعَبٌ يَهلِك به الآدميُّ ؛ إذ لا يدعه يَتقارُّ[٣] على حالة من الضَّجر فيما تُنازِعُه الطَّبيعة إليه ، وهو كالمَزْعِ في أعصابه ، يُحسُّها تشَدُّ ؛ لتقطع ، ودائماً تشدُّ ؛ لتقطع .

وقد رهَقني من ذلك الضَّنى النّسويِّ ما عِيل[٤] به صبري ، وضَعُف له احتمالي ، فما أراني يوماً على جِمامٍ من النَّفس ، ولا ارتياحٍ من الطَّبع ، وكيف وفي القلب مادَّة همِّه ، وفي النَّفسِ علَّة انقباضِها ، وفي الفكر أسبابُ مَشْغلته ؟ ! وقد أوقدتْ سَوْرَةُ الشَّباب نارَها على الدَّم ، تلتعِجُ[٥] في الأحشاء ، وتطير في الرأس ،

---

(١) « حذارهم » : حاذره محاذرة وحِذاراً : حذر كلٌّ منهم الآخر .
(٢) « خرس » : جمع أخرس ، وهو الذي انعقد لسانهُ عن الكلام عيّاً ، أو خِلْقَةً .
(٣) « يتقار » : يسكن ولا يتحرك .
(٤) « عيل » : نَفِدَ .
(٥) « تلتعج » : تؤلم ، وتحرق .

وتصبغُ الدُّنيا بلون دُخانها ، وفي كلِّ يومٍ يتخلَّف منها رَمادٌ هو هذا السَّوادُ ؛ الَّذي رَانَ على قلبي .

وما حال رجلٍ عذابُه : أنَّه رجلٌ ، وذلُّه : أنه رجلٍ ؟ ! يلبس ثيابه الإنسانيَّة على مثل الوحش في سلاسله ، وأغلالِه ، ويحمل عقلاً تسبُّه الغريزة كلَّ يومٍ ، وتراه من العقول الزُّيُوفِ[1] ، لا أثر للفضيلة فيه ؛ إذ هو مجنونٌ بالمرأة جنونَ الفكرةِ الثَّابتة ، فما يخلو إلى نفسه ساعةً ، أو بعضَ ساعةٍ إلا أخذته الغريزة مُجْترحاً[2] جريمة فكرٍ . . . . . .

وفي دُونِ هذا ينكرُ المرءُ عقله وأيُّ عقلٍ تُراه في رجلٍ عَزَبٍ يقع في خياله : أنَّه متزوِّجٌ ، وأنَّه يأوي إلى « فلانة » ، وأنَّها قائمةٌ على إصلاح شأنه ، ونظام بيته ، وأنَّه من أجلها كان عزُوفاً عن الفحشاء ، بعيداً من المنكر ، وفاءً لها ، وحفظاً لعهدِ الله فيها ، وقد دلَّهتْه بفتونها التي يبتدِعها فكرهُ ، وهي ساعةً تؤاكِله على الخِوان ، وساعةً تضاحِكه ، ومرَّة تعابثه ، وتارةً تجافيه ، وفي كلِّ ذلك هو ناعمٌ بها ، يحدِّثها في نفسه ؛ ويسمرُ معها ، ويتصنَّع لها ، وتتصنَّع له ، ويعاتبها أحياناً في رقَّةٍ ، وأحياناً في جَفاءٍ ، وغلظةٍ ، وقد ضربَها ذات مرَّةٍ . . . !

ألا إنَّ فكرة المرأة عندي هي هذا الجنون الذي يرجع بي إلى عشرة آلاف سنة من تاريخ الدُّنيا ، فيرمي بي في كهفٍ ، أو غابةٍ ، فأراني من وراء الدُّهور كأنِّي أبدأ الحياة منفرداً ، وأجدني رجلاً عارياً متوحشاً متأبِّداً[3] ، ليس من الحيوان ولا من الإنس ، دنياه أحجارٌ ، وأشجارٌ ، وهو حجرٌ له نموُّ الشَّجر .

لقد توزَّعت المرأة عقلي ، فهو متفرقٌ عليها ، وهي متفرقةٌ فيه ؛ لا أستطيع واللهِ ! أن أتصوَّرها كاملةً ، بل هي في خيالي أجزاءُ لا يجمعُها كلٌّ ؛ هي ابتسامةٌ ، هي نظرةٌ ، هي ضحكةٌ ، هي أغنيةٌ ، هي جسمٌ ، هي شيءٌ ، هي ، هي ، هي . . .

أكلُّ تلك المعاني هي المرأة الَّتي يعرفها النَّاس ، أم أنا لي امرأةٌ وحدي ؟

---

(١) « الزيوف » : جمع زائف ، وهو الرديء .

(٢) « مجترحاً » : مقترفاً .

(٣) « متأبداً » : نافراً متوحشاً .

وإنِّي على ذلك لأتخوَّف الزَّواج ، وأتحاماه[١] ؛ إذ أرى الشَّارعَ قد فَضحَ النِّساءَ ، وكشفهنَّ ؛ فما يُرِيني منهنَّ إلا امرأة تُزْهىٰ بثيابها ، وصنْعةِ جمالِها ، أو امرأة كالهاربة من فضائِلها ؛ والبيت إنَّما يطلب الزَّوجةَ الفاضلة الصَّناع ، تَخِيط ثوبَها بيدها ، فتُباهي بصنعته قبل أن تباهي بلبسه ، وتُزْهَى بأثر وجهها فيَّ ، لا بأثر المساحيق في وجهها ، وإنَّ مكابدة العفَّةِ ، ومصارعة الشَّيطان ، وتوهُّجَ القلب بناره الحامية ، وإلمامَ الطِّيرَة[٢] الجنونيَّة بالعقل ، كلُّ ذلك ومثله معه أهون من مكابَدة زوجةٍ فاسدة العِلم ، أو فاسدة الجهل ، ابْتَلَى منها في صديق العُمر بعدوِّ العُمر .

إنَّ أثر الشَّارع في المرأة هو سوءُ الظَّنِّ بها ، فهي تحسِب نفسها معلنةً فيه أنوثتَها ، وجمالها ، وزينتَها ، ونحن نراها معلنةً فيه سُوْءَ أدبٍ ، وفسادَ خُلُقٍ ، وانحطاط غريزةٍ ، ومن كان فاسقاً أساء الظَّنَّ بكلِّ الفتيات ، ووجد السَّبيلَ من واحدةٍ إلى قولٍ يقوله في كلِّ واحدةٍ ، ومن كان عفيفاً سمع من الفاسق ، فوجد من ذلك مُتعلقاً يتعلَّق به ، وقياساً يقيس عليه ؛ والفتنة لا تصيب الَّذين ظلموا خاصَّةً ، بل تعُمُّ .

آه ! لو استطعت أن أوقِظَ امرأةً من نساء أحلامي . . .

* * *

وقال « أ » : لقد كانت معاني المرأة في ذهني صُوَراً بديعةً من الشِّعر تستخفُّني إليها العاطفة ، ولا يزال منها في قلبها لكلِّ يومٍ نازيةٌ تنزو[٣] ، وكانت المرأة بذلك حديثَ أحلامي ، ونجيَّ وساوِسي ، وكنتُ عفيفَ البنطلون[٤] ؛ ولكنَّ النِّساءَ أيقظنني من الحُلُم ، وفجعْنَني فيه بالحقيقة ، ووضعْنَ يدي على ما تحت مَلْمَس الحيَّة ، ولو حدَّثتُك بجملة أخبارهنَّ وما مارستُ منهنَّ ؛ لتكرهتَ ، وتسخَّطت ، ولأيقنتَ : أنَّ كلمة (تحرير المرأة) إنَّما كانت خطأً مطبعيّاً ، وصوابها : (تجرير

(١) « أتحاماه » : أتوقَّاه وأجتنبه .

(٢) « الطيرة » : التشاؤم .

(٣) « نازية تنزو » : النزوة : الوثبة . ونزوات الإنسان : نزعاته .

(٤) يقول العرب في الكناية عن العفَّة : هو عفيف الإزار ، وترجمتها في عصرنا ما رأيت . (ع) .

المرأة) . . فهؤلاء النِّساءُ ، أو كثرتهن ؛ لم يُسدِلنَ الحجابَ إلا لتخرجَ واحدةٌ ممَّا تجهلُ إلى ما تريد أن تعرف ، وتخرجَ الأخرى ممَّا تعرف إلى أكثرَ ممَّا تعرفه ، وتخرجَ بعضُهن من إنسانةٍ إلى بهيمةٍ . . .

لقد عرفتُ فيمن عرفتُ منهنَّ الخفيفة الطيَّاشة ، والحمقاءَ المتساقِطة ، والفاحشة ذات الرِّيبة ؛ وكلُّ أولئك كان تحريرهُنَّ ـ أي : تجريرهنَّ ـ تقليداً للمرأة الأوربيَّة : تهالكنَ على رذائلها دون فضائلها ، واشتدَّ حرصُهنَّ على خيالها الرِّوائيِّ دون حقيقتها العلميَّة . ومن مصائبنا نحن الشَّرقيِّين أنَّنا لا نأخذ الرَّذائلَ كما هي ، بل نزيد عليها ضَعْفنَا ، فإذا هي رذائلُ مضاعَفةٌ !

كان الحُلمُ الجميل في الحجاب وحده ، وهو كان يُسَعِّر[1] أنفاسي ، ويَستطيرُ قلبي ، ويُرغمني مع ذلك على الاعتقاد أنَّ هاهنا علامةَ التكرُّم ، ورمزَ الأدب ، وشارة العفَّة ؛ وأنَّ هذه المحصَّنةَ المخدَّرة ؛ عذراء ، أو امرأةً ، لم تُلق الحجابَ عليها إلا إيذاناً بأنَّها في قانون عاطفةِ الأمومة لا غيرِها ؛ فهي تحت الحجاب ؛ لأنَّه رمزُ الأمانة لمستقبلها ، ورمزُ الفصل بين ما يحسنُ وما لا يَحسن ، ولأنَّ وراءه صفاءَ روحها ؛ الذي تخشى أن يكدَّر ، وثباتَ كِيانها الَّذي تخشى أن يُزعْزَع .

قال حكيمٌ لأولئك الَّذين يستميلون النِّساء بأنواع الحُليِّ ، وصُنوف الزِّينة والكسوة الحسنة : « يا هؤلاء ! إنَّكم إنَّما تعلمونهنَّ محبَّةَ الأغنياء ، لا محبَّةَ الأزواج » وأحكَمُ من هذا قولُ ذلك الرَّجل الإلٰهيِّ الصَّارم عمرَ بن الخطاب : « اضربوهنَّ بالعُرْي » فقد عَرف من ألف وثلاثمئة سنة : أنَّ تحريرَ المرأة هو تجريرُها ، وأنَّها لا تخرج لمصلحةٍ أكثرَ مما تخرج لإخراج زينتها ، فلو مُنِعت الثِّيابَ الجميلة حَبستْها طبيعتُها في بيتها ؛ فماذا تقول الشَّوارعُ لو نطقت ؟ إنَّها تقول : يا هؤلاء ! إنَّما تعلموهنَّ معرفة الكثير ، لا معرفة الواحد . . . !

لقد والله أنكرتُ أكثرَ ما قرأتُ ، وسمعتُ من محاسنهنَّ ، وفضائلهنَّ ، وحيائهنَّ . وقد كان الحجابُ معنىً لصعوبة المرأة ، واعتزازِها ، فصار الشَّارع معنىً لسهولتها ، ورخصها ؛ وكان مع تحقُّقِ الصُّعوبة أو توهُّمِها أخلاقٌ ، وطباعٌ في الرَّجل ، فصار مع توهم السُّهولة ، أو تحقُّقِها أخلاقٌ وطباعٌ أخرى على العكس

(١) « يسعّر » : يُشْعِل ، ويُهيِّج .

من تلك ، ما زالت تَنمي[١] ، وتتحوَّل ؛ حتَّى ألجأت القانون أخيراً أن يترقَّى بمن لمسَ المرأةَ في الطَّريق من « الجُنحة » إلى « الجناية » .

وتخنَّثَ الشُّبَّانُ والرِّجالُ ضروباً من التَّخنُّث بهذا الاختلاطِ ، وهذا الابتذال ، وتحلَّلتْ فيهم طباعُ الغَيْرَة ، فكان هذا سريعاً في تغيير نظرتهم إلى النِّساء ، وسريعاً في إفسادِ اعتقادهم ، وفي نَقضِ احترامهم ؛ فأقبلوا بالجسم على المرأة ، وأعرضوا عنها بالقلب ، وأخذوها بمعنى الأنوثة ، وتركوها بمعنى الأمومة ؛ ومن هذا قلَّ طلاَّب الزَّواج ؛ وكثر رُوَّاد الخَنا[٢] .

ولقد جاءت إلى مصرَ كاتبة إنجليزيَّةٌ ، وأقامت أشهراً تخالطُ النِّساءَ المتحجِّبات ، وتدرس معانيَ الحجاب ، فلمَّا رجعت إلى بلادها ؛ كتبت مقالاً عنوانه : « سؤال أحمله من الشَّرق إلى المرأة الغربيَّة » قالت في آخره : « إذا كانت هذه الحرية الَّتي كسبناها أخيراً ، وهذا التَّنافس الجنسِيُّ ، وتجريد الجنسين من الحُجبِ المشوِّقةِ الباعثةِ ؛ التي أقامتها الطَّبيعة بينهما ؛ إذا كان هذا سيُصبح كلُّ أثره أن يتولَّى الرِّجالُ عن النِّساء ، وأن يزولَ من القلوب كلُّ ما يحرِّك فيها أوتارَ الحبِّ الزَّوجيِّ ؛ فما الَّذي نكون قد ربحناه ؟ لقد والله تضطرنا هذه الحال إلى تغيير خِطَطنا ، بل قد نستقرُّ طوعاً وراء الحجاب الشَّرقيِّ ، لنتعلَّم من جديد فنَّ الحبِّ الحقيقيِّ » .

* * *

وقال « ع » : لستُ فيلسوفاً ، ولكنْ في يدي حقائق من علم الحياة ، لا تأتي الفلسفة بمثلها ، وكتابي الذي أقرأ فيه هو الشَّارع .

فاعلم : أنَّ العُزَّاب من الرِّجال يتعلَّم بعضُهم من بعضٍ ، وهم كاللُّصوص : لا يجتمع هؤلاء وهؤلاء إلا على رذيلةٍ ، أو جريمةٍ ؛ وحياة اللِّص معناها وجودُ السَّرقة ، وحياة العَزَبِ معناها وجودُ البِغاء ، والفسق .

ومن حُكم الطَّبيعة على الجنسين : أنَّ الفاسقَ يُباهي بإظهار فسقِه قدرَ ما تخاف الفاسقة من ظهور أمرها ؛ وهذه إشارةٌ من الطَّبيعة إلى أنَّ المرأةَ مِسكينةٌ مظلومةٌ .

---

(١) « تنمي » : تزيد ، وتكثر .
(٢) « الخنا » : الفحش في الكلام .

فما ابتذالُ الحجاب ، ولا استهتاكُ النِّساءِ[١] إلا جوابٌ على انتشار العُزُوبةِ في الرِّجال ، وكيف يتحوَّل الماء ثلجاً لولا الضَّغط نازلاً فنازلاً إلى ما دون الصِّفر ؟ فهذا الثَّلجُ ماءٌ يعتذرُ من تحمُّله وانقلابه بعذرٍ طبيعيٍّ قاهرٍ له قوَّة الضَّرورة المُلجِئة ، وكذلك المرأةُ المُذَالة[٢] ، أو الطَّامحةُ ، أو المتبذِّلة ، أو المتهتكة ، ما صِفاتهنَّ إلا توكيدٌ لأعذارهنَّ .

وكان على الحكومة أن تضربَ العزوبة ضربة قانونٍ صارمٍ ، فالعَزَبُ وإن كان رجلا حُرّاً في نفسه ، ولكن رجولتَه تفرض للأنوثة حقَّها فيه ؛ فمتى جحد هذا الحقَّ ، واستكبر عليه ، رجع حاله مع المرأة إلى مثل شأنِ الغريم مع غريمه : ليس للفصل فيه إلا الدَّولة ، وأحكامُها ، وقوَّتها التَّنفيذية .

وإذا أُطلِقت الحرِّيَّة للرِّجال فصاروا كلُّهم ، أو أكثرهم أعزاباً ، فماذا يكون إلا أن تمحى الدولة ، وتسقط الأمَّة ، وتتلاشى الفضائل ؟ فالعُزوبة من هذا جريمةٌ بنفسها ، ولا ينبغي أن تتربَّص بها الحكومة حتَّى تعمَّ ، بل يجب اعتبارُها باعتبار الجرائم من حيث هي ، ويجب تفسيرُ كلمة « العَزَب » في اللغة بمثل هذا المعنى : إنَّها شخصيةٌ مذكَّرةٌ ساخطةٌ متمرِّدةٌ على حقوق مختلفةٍ : للمرأة ، والنَّسل ، والأمَّةِ ، والوطن .

وما ساء رأيُ العزَّاب في النساء ، والفتيات إلا من كونهم بطبيعة حياتهم المضطربة لا يعرفون المرأةَ إلا في أسوأ أحوالها ، وأقبح صِفاتها ، وهم وحدهم جعلوها كذلك .

إنَّ لهم وجوداً محزِناً ، يستمتعون فيه ، ولكنَّهم يَهلِكون ، ويُهلِكون به ؛ هم والله ! أساتذة الدُّروس السَّافلةِ في كلِّ أمَّةٍ ، وهم والله بُغاةٌ من الرِّجال في حكم البَغايا من النِّساء ، يَجرُونَ جميعاً مَجرى واحداً ؛ ومَن هي البغيُّ في الأكثر إلا امرأة فاجرةٌ لا زوج لها ؟ ومَن هو العَزَب في الأكثر إلا رجلٌ فاسقٌ لا زوجة له ؟ على أنَّ مع المرأة عذرَ ضعفِها ، أو حاجتها ، ولكن ما عذرُ الرَّجل ؟

---

(١) « استهتاك النساء » : أي : ارتكابهنَّ الأخطاء غير مبالياتٍ بأقوال الناس ، وافتضاح أمرهن وسترهن .

(٢) « المذالة » : التي أرخت قناعها ، وأرسلته .

ماذا تفيدُ الدَّولة أو الأمَّة من هذا العزب الذي أعتاد فوضَى الحياة ، وسيْرَها على نظامها ، وتَحقُّقَها على أسخف ما فيها من الخيال والحقيقة ؟ وأيُّ عزَبٍ يجد الاستقرار ، أو تجتمع له أسباب الحياة الفاضلة ، وهو فقدَ تلك الرُّوحَ الَّتي تتمِّم روحَه ، وتُنقِّحها[1] ؛ وتُمسِكها في دائرتها الاجتماعيَّة على واجباتها ، وحقوقِها وتجيئه بالأرواح الصَّغيرة الَّتي تشعره التَّبعةَ ، والسِّيادةَ معاً ، ويمتدُّ به ، ويمتدُّ بها في تاريخ الوطن ؟

كيف يُعتبر مثل هذا موجوداً اجتماعيّاً صحيحاً ، وهو حيٌّ مختلٌّ في وجودٍ مُستعارٍ ، يقضِي الليل هارباً من حياة النَّهار ، ويقضي النَّهارَ نافراً من حياة اللَّيل ؛ فيقضي عمرَه كلَّه هارباً من الحياة ، وكأنَّه لا يعيش بروحه كاملةً ، بل ببعضها ، بل بالممكن من بعضها . . . !

أيَّةُ أسْرةٍ شريفةٍ تقبل أن يساكِنها رجلٌ عزَبٌ ؟ وأيَّةُ خادمٍ عفيفةٍ تطمئنُّ أن تخدمَ رجلاً عزباً ؟ هذه هي لعنة الشَّرف ، والعفَّةِ لهؤلاء الأعزاب من الرِّجال !

* * *

قال الرَّاوي : وهنا انتفض « س » و« أ » وحاولا أن يقبضا على هذه اللَّعنة ، ويردَّاها إلى حلْق « ع » ثمَّ سألني ثلاثتهم أن أسْقِطها من المقال ، بَيد أنِّي رأيتُ أن خيراً من حذفها أن تكون اللَّعنة لأعزاب الرِّجال إلا « س » و« أ » و« ع » .

* * *

(١) « تنقحها » : تُهذِّبها ، وتُصلحها ، وتُخلِّص جَيِّدها من رديئه .